الإسلام والغرب

العلاقة المأزومة بالسياسة

الدكتور عبد الجواد الفلاطوري
تقديم: مهدي كهنداني
تعريب: عمار حمادة

المرحوم البروفسور عبد الجواد الفلا طوري، المفكر والباحث الإيراني المعاصر، كان من جملة المفكرين الذين لم يألوا جهداً من أجل تقديم صورة متجددة وصحيحة عن الإسلام إلى الغرب، وكان من الذين عملوا في سبيل تنقية الشوائب والإستنتاجات الخاطئة التي كانت قد لحقت بهذه الصورة لديهم.

لدى ذهابه سنة ١٩٥٤ م إلى المانيا لدراسة الفلسفة، تمكن عام ١٩٨٧م. بالتعاون مع بعض أصدقائه المتفقين معه فكرياً من تأسيس أكاديمية للعلوم الإسلامية في كولن بهدف تعريف الشعب الألماني بالإسلام، وتأليف الكتب حوله وحول تاريخه. وقد تمكنت هذه الأكاديمية خلال مدة وجيزة من اكتساب مكانة علمية مرموقة بين المراكز العلمية العاملة في حقل معرفة الإسلام.

ومن بين الأنشطة الأخرى التي قامت بها هذه الأكاديمية إقامة المحاضرات حول الإسلام والمعرفة الدينية. السطور التالية هي إحدى محاضرات البروفسور الفلاطوري حول العلاقة بين الإسلام وها نحن نقدمها للقراء الكرام مترجمة عن اللغة الألمانية:

الترابط والتصدُّع:

تعلمون أن لكل من الإسلام والغرب تاريخ طويل من العلاقات

المتبادلة يتشكل من علاقات إيجابية وسلبية. وللتوضيح سوف أقوم بتقسيم البحث إلى أربعة أقسام:

القسم الأول هو المجال الديني الذي يربط الإسلام بالغرب أو يفصله عنه، القسم الثاني هو المجال الثقافي الذي بنفس المقدار، يجمع الثقافة الإسلامية بالثقافة المسيحية ـ الغربية ـ ولكنه يعود فيفصلهما عن بعضهما إلى حد ما. القسم الثالث هو العلاقات السياسية التي نادراً ما كانت إيجابيةً، وقد تركت أثراً سلبياً على الصعيدين الأولين. القسم الرابع يمثل الخلاصة العامة للبحث؛ حيث يجب التفكير ملياً في ما يمكن أن نقوم به الآن وفي المستقبل كمهتمين بالشأن الإنساني العام.

نشرع بداية بالقسم الأوّل؛ أي في المجال الديني. في هذا المجال سوف أسعى، كباحث في الأديان وليس كمسلم، لأهتم بالظواهر آخذاً مسافة منها دون التفكير بصدقها أوكذبها. الملفت أنّ الإسلام وحده، من بين جميع أديان العالم، هو الذي يعترف بعيسى المسيح (ع) نبيا، وبأمه مريم (ع) كامرأة لها قداسة واحترام لذاتها ولأنها أم لنبي. فمن الناحية العملية اعترف الإسلام والمسلمون بالدين المسيحي.

والقرآن الكريم يقبل شخصية النبي عيسى (ع) بجميع الخصائص التي ينسبها إليه المسيحيون والتي يؤمنون بها بل ربما بشكل أعلى مما يؤمن به المسيحيون أنفسهم– وأنا أميل لطرح هذا في البداية لأنتقل بعد ذلك إلى بيان موارد الاختلاف بين الطرفين– فقد اعترف الإسلام للسيدة مريم بجميع خصائصها كطهارتها، وعذريتها وغير ذلك. ولم يصف القرآن أحداً كما وصف المسيح (ع) ، فوصفه بأنّه روح الله وكلمته، وأنه ولد بنحو مختلف وأن حمل أمه به كان من قبل الروح القدس. كل هذا يؤيده القرآن، هناك شيء واحد فقط لم يؤيده وهو بالضبط ما أدّى إلى الاختلاف.

وللعلم فإنّ التاريخ الإسلامي، أي تاريخ عصر النبي (ص)، ينقسم إلى مرحلتين: المرحلة المكية التي تمتد من عام ٦١٠م. إلى أواسط عام ٦٢٢م. ثم المرحلة المدينة التي تشغل الفترة الزمنية الممتدة ما بين أواسط سنة ٦٢٢م. إلى سنة ٦٣٢م.

ولا مبرر منطقي لافتراض أنّ الرسول (ص) نقل هذا الكلام عن المسيحية واليهودية في المدينة عندما التقى باليهود والنصارى؛ حيث إن الكلام عن المسيح وأمه مريم في القرآن كان في المرحلة المكية بل في بدايات الوحي، ويبقى سراً في الأسرار كيف أنّ عربياً يعيش في محيط مليء بالمشركين ينحاز إلى اليهود والنصارى!

هذا سؤال لا يمكن الإجابة عنه هنا، ولكني أريد العودة فقط إلى النبي عيسى (ع) وأمه مريم(ع). إذن كل الخصائص قد تمت الموافقة عليها إلا واحدة.

وللمناسبة عندما يبين القرآن ببساطة أنَّ اليهود لم يقتلوا المسيح (ع) ولم يصلبوه بل إن شخصاً اقتيد مكانه خطأً، فإنَّ هذا كان في المرحلة المدنية خلال رده على ادعاءات اليهود، وليس في خطاب للمسيحيين، حيث يعبِّر القرآن بأسلوبه المميز: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (١).

تبدو المسألة في البداية بسيطة جداً، المسيحيون يقولون إنَّ المسيح (ع) مات على الصليب أما المسلمون، فلا يقولون بذلك. ولكن المسألة ليست بهذه البساطة، فالأمر المطروح هنا يتضمن ذات وجوهر كلا الديانتين، وعندما نبدأ من هذه النقطة نلاحظ اختلاف إحدى الديانتين عن الأخرى بشكل أساسي. ولأجل توضيح المطلب أبيِّن السبب بدايةً بشكل مختصر جداً.

الاختلاف الحقيقي بين الإسلام والمسيحية هو اختلاف في الرؤية إلى الإنسان. فالإنسان من وجهة نظر الإسلام مفطور على الخير ثم مع مرور الزمان إما يقوم بتنمية هذا الخير بمعونة الوحي وإما أن لا يقوم بذلك. وفي المقابل نحن نعلم أنَّ الإنسان في المسيحية تلوث بالخطيئة – ولا يهم كيف نفسرها وهل هي الخطيئة الأولى أو الخطيئة مطلقاً– المهم أن هذا الإنسان الذي تلوث بالخطيئة يحتاج إلى الخلاص. ومن المنطقي طبعاً أن يتم الخلاص بطريقة أخرى، أي عن غير طريق القدرة الإنسانية، بل من خلال القدرة الإلهية.

المسيحية مبتنية على هذا التفكير الخلاصي، وهذه المنظومة بحد ذاتها مقفلة ولا تترك للإنسان منفذاً مفتوحاً. الإسلام لا يعتبر بأي حال من الأحوال أن ماهية الإنسان مرهونة بهذا التلوث بالخطيئة وعليه لا معنى للاحتياج الأولي للإنسان إلى الخلاص. تعبير «الخلاص» لم يرد ذكره في القرآن أبداً، وما يحتاجه الإنسان الذي هو بماهيته خيِّر، هو الهداية.

برأي القرآن تشكل الهداية لب جميع الديانات الموحى بها. فالتوراة والإنجيل، وكذلك صحف إبراهيم ومزامير داوود، بالإضافة إلى جميع كتب الأديان السماوية التي نعرفها، وأيضاً كل كتاب له ارتباط ما بالوحي، كلها ذات منهج واحد وهو الهداية.

وهذا يقدم لنا نموذجاً متميزاً بشكل تام، هو بحد ذاته قطعي ولم يعدل عنه القرآن في أي مورد، ذلك أنّ الاختلاف بين المسلمين والمسيحيين، بالأحرى سبب تنازعهم، وهو أنّهم قلما سعى الواحد منهم لفهم الآخر ضمن منظومته الخاصة به. المسيحي يرفض الإسلام انطلاقا من منطقه الخاص.

وقد قام كثير من خبراء الأديان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بمساعٍ حثيثة وضموا جهود بعضهم إلى جهود بعضهم الآخر لدراسة الأديان المختلفة ومن جملتها الإسلام، وتضاعف هذا الجهد في القرن العشرين، لكن الرؤية التي كانت حاكمة على جهود الجميع هي الرؤية المسيحية والأفق الفكري المنظور من خلاله هو الأفق المسيحي. كان هؤلاء يبحثون عن النجاة، لكن فاتهم أن النجاة لا تكون بالإيمان فحسب، بل بحسب الرؤية الإسلامية ما ينجّي المسلمين هو أعمالهم. في الإسلام المنهجِ الوحيد للدين هو القيادة والهداية.

وتبرز نكتة أخرى، وهي ملفتة جداً على صعيد المعرفة الدينية فللدين، أي الدين التوحيدي، ميزة فريدة ليست في غيره، وهي أنه لا يمكن إلا أن يكون واحداً. ليس بمعنى أن نأخذ عدة أديان ونستخرج منها نقطة مشتركة، كلا، الدين هو الارتباط بالله، وهذا الارتباط بحسب القرآن هو الإسلام. وهذا الإسلام ليس ملكاً لمحمد (ص) بل هو الوحي أو هو دين آدم (ع)، الإله الذي خلق هذا الإنسان وجعل له كل هذه النعم والخيرات لم يتركه في الأرض دون هداية. أي أنّ الله قام بهذا العمل منذ اللحظة الأولى، فآدم (ع) هو الشخص الأوّل الذي تلقى الوحي، وليس من الضروري أن يكون هذا الوحي مكتوباً. بناءً عليه، فإنّ الوحي الذي تلقاه هو الإسلام وكذلك وحي ابراهيم(ع) وموسى (ع) وعيسى (ع).

فلو أصّر المرء على أنّ الدين هو علاقة الإنسان مع أمرٍ مقدس (نومينوس)[٢] أي الله، فلا يبقى منه إلا الإسلام. وكما أنّ هذه النقطة بحد ذاتها هنا منطقية كذلك هي بالدقة في المسيحية. المشكلة أننا نادراً ما سعينا أو أننا لم نسع للتعرف على بعضنا بشكل أفضل. بينما نجد أن هذا السعي أو الدعوة إلى التعرف قد مارسها القرآن بدقة منذ بداية الوحي إلى نهايته عندما اعترف باليهود والمسيحيين. وهذا لم يكن تسامحاً في التعبير أو تساهلا يحتوي على نوع من المجاملة، بل نظرة إيمانية موجودة في القرآن ترى أنّ ما لدى هؤلاء هو الإسلام، لا أنّه سمح لهم فقط بالاستمرار، بل أيدهم، واعتبرهم جزءاً من الحالة الإيمانية، وهذا أكثر من التسامح الذي تصورّناه. بالطبع ينتقد القرآن اليهود والنصارى

الذين لا يحترمون دينهم، ولكنَّه يمجِّد الذين يعملون منهم طبقه. هذا صحيح، ولكنني أريد أن أقول شيئاً آخراً، نحن نتحدث على مستويين، مرة يكون الكلام على مستوى الوحي، ومرة يكون على مستوى التاريخ الذي كان منذ البداية واقعاً تحت تأثير العلاقات السياسية. لهذا السبب لم تكن الأمور تسير دائماً على الوتيرة الحسنة التي كان يريدها القرآن. بكلمة واحدة أستطيع القول: إنَّه إذا كان لديكم شك في ما أقول فافتحوا القرآن؛ عندها سوف تبدو الكثير من الأمور بشكل مختلف كلياً. أنا مؤمن بهذا ومعتقد به. برزت هذه الروحية دائماً على طول التاريخ الذي سوف أسرده لكم بعد قليل، ونحن اليوم بحاجة إليها.

في الميدان الثقافي، اعتنى الإسلام بعلوم الأمم الأخرى ونشرها في البلاد التي حكمها في عهوده الأولى. عندما تفتحون القرآن الكريم تجدون أنَّه يوصي دائماً، أكثر من جميع الكتب المقدسة الأخرى، الإنسان بالتفكر والتأمل وإعمال العقل والفهم، إلى درجة تدفع الدارس لظاهرة الأديان إلى أن يسأل هل هذا دين أم فلسفة؟ لماذا ينبغي أن يفكر الإنسان باستمرار؟ وما معنى هذا التفكرٌ؟ هذا الأمر أعطى العلماء في بداية العهد الإسلامي فرصة أن لا يكتفوا بالعمل بالقطعي من القواعد الإسلامية، بل أن يضعوا أصولاً ويبنوا على أساسها صرحاً قانونياً شامخاً.

كيف تشكل هذا التيار؟

وسوف أحاول توضيح هذه الدعوى؛ فإننا عندما ننظر إلى القرآن الذي يشتمل على أكثر من ٦٠٠٠ آية ، نجد أنَّ ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ منها فقط يتعلق بقواعد السلوك. فكما عبَّر القرآن دائماً وكرر ذلك، هو ليس كتاب قانون.

لم يستطع المسلمون، بعد أن فتحوا الحضارات العظيمة في عصرهم، أن يتغلبوا على المصاعب بهذه القواعد المعدودة. فالكثير من العقبات التي كانت تواجههم لم تكن موجودة في الحجاز، وكان أولئك مجبورن على العثور على طريق لحل تلك المشكلات وقد قام العلماء بذلك. فقد قام هؤلاء باستنباط أصول من القرآن يمكن أن يستنتج منها قوانين وقواعد أخرى. و مع مرور الزمان، وبسبب سعة الصدر هذه والرؤية البعيدة، قام العلماء، وحتى الخلفاء، بالاطلاع على التراث الفكري اليوناني والإيراني والهندي في شتى الميادين، فترجموا إلى العربية، بحماس وافر وبطريقة منظمة، كل ما وصل إلى أيديهم من

فلسفة، ومنطق، وطب، ورياضيات، وكيمياء، ونجوم، وفيزياء؛ حيث كانت الفلسفة في ذلك الزمان أرسطية؛ أي شاملة لعلم النفس وعلم المعادن وعلم الأحياء وعلم التربة .... إلخ.

ترجم المسلمون كل هذا إلى العربية واهتموا بتطويره، ولولا هذا التطوير لما كان لدينا الأعداد العشرية والعدد صفر ولما كنا حصلنا في الطب أيضاً على كل هذه الاختبارات.

لقد كانت كتب ابن سينا والرازي تدرّس في كليات الطب في فرنسا وفي أماكن أخرى إلى القرن السابع عشر. كل المفاهيم المستحدثة في الرياضيات والجبر، من قبيل اللوغاريتم، كانت من إبداعات الخوارزمي. لولا هؤلاء لما قدَّر للبشرية أن تصل إلى هذه المرحلة من التطور وليس من الإنصاف تجاهل هذه الحقيقة.

القرآن أرضية الثورة العلمية:

في القسم الأوّل من هذا البحث، أشرنا إلى مجالات الاشتراك والافتراق بين الإسلام والمسيحية، ونحن نرى في الكثير من الدراسات التي أُجريت حول الاختلافات الموجودة بين هاتين الديانتين لم تكن ثمة رؤية مجردة عن الأحكام المسبقة، وقد ساهمت هذه الرؤى في توفير أرضية افتراق إحدى الديانتين عن الأخرى. وسوف نحاول في هذا القسم الأخير من البحث التعرض لمسألة العلاقات السياسية بين الإسلام والغرب (المسيحية). لقد قرأت في دراسة تحليلية، أجريناها على الكتب المدرسية، أنَّ المسلمين ليس لديهم إرادة حرة ولذلك يُعَدُّون من الأمم التي تخلفت عن قطار التطور. ولا أخفي أن هذا التوصيف توصيف مزعجٌ.

من المزعج أن تكون مثل هذه الأشياء الجزئية عملياً داخلة في الثقافة الغربية، في الوقت الذي تقوم فيه بتجاهل الإنجازات المفيدة لهذا العصر التي قدمها المسلمون، أنا دائماً كنت أقول إنَّ هذا نوعٌ من الظلم العلمي. فالظلم يمكن أن يكون علمياً.

لقد أسسوا معاً لهذه العلوم، وهذا الضبط ما أقوله وهو أنَّ القرآن، بالرغم من جميع الصراعات السياسية، قد دعا دائماً للتحمُّل الذي عبَّرت شخصياً عنه. فهذا البناء الشامخ العلمي لم يكن ليتحقق لولا التعاون بين المسلمين والمسيحيين واليهود، وغيرهم. فقد عملوا معاً في بغداد وإيران كما لو أنَّهم كانوا إخوة منذ الأزل. لم يكن أحدهم يرى مشكلةً في أن يكون هذا يهودي و ذاك مسلم هذه الأجواء تكررت في القرون التي حكم فيها المسلمون أسبانيا.

في أغلب الأحيان كان المسيحيون؛ أي النساطرة، الذين كانوا يتقنون اللغة السريانية وكانوا يستطيعون العمل كمترجمين بين العربية واليونانية، هم من يقوم بدور الوسيط في الترجمات الأولى، وقد ساهم المسلمون والمسيحيون معاً في هذا العمل. وهذه حقبات من التاريخ تدل على أنَّ النَّاس يستطيعون أن يكونوا بوضعٍ مميزٍ خالٍ من البغض والخصومة.

حسناً، ننتقل إلى القسم الثالث، القسم غير المرغوب به، أي العلاقات السياسية بين الإسلام والمسيحية واليهودية. بدأت هذه العلاقات بعد انتشار الإسلام وارتحال النبي (ص).

يروج الكثيرون لمقولة انتشار الإسلام بالسيف بعد انتقال النبي (ص) إلى الرفيق الأعلى،

طبعاً ليس هذا دقيقاً، ونحن الآن نغض الطرف عن هذا الكلام المحَّرف ونقوم باستعراض الوقائع. كانت الحجاز، لبضعة قرون تتنازعها إيران وبيزنطية، وكلما كان الفرس يتغلبون على الروم كانوا يضمون المزيد منها إليهم، والعكس صحيح.

صادف، من الناحية التاريخية، أن جاء النبي محمد (ص) في زمانٍ كان فيه الفرس والبيزنطيون مشغولون بحرب فيما بينهم شغلتهم عن الالتفات إلى شبه الجزيرة العربية، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نعثر على وثيقة أو تقرير عن تطورات ذلك العصر في تواريخ سائر البلدان.

كل ما نعرفه عن ذلك العصر مكتوبٌ بالعربية، وهذه الوثائق العربية، التي ظهر أكثرها في القرن الثاني للهجرة لا يمكن التثبت من صحتها دون قيدٍ أو شرط. فجأة أصبح العرب موحدون، بعد أن كانوا يتقاتلون خلال مئة سنة، وشكلوا دولة موحدة، وبالطبع لم يكونوا قد نسوا بعد تسلط القوى السابقة عليهم كالفرس والبيزنطيين. نحن لا نعلم إن كان هدف الحروب التي حدثت هو الانتقام منهم أو منعهم من العودة إلى استلام مقاليد الأمور؟ لا فرق.

المسلم به أنَّ البيزنطيين أمروا القبائل المسيحية التي تسكن شمال الحجاز بمواجهة حركة النبي محمد (ص). لم تكن تلك القبائل المسيحية، حتى ذلك الحين، تفكر بهذا الأمر؛ لأنَّ العلاقة بين المسلمين والمسيحيين على وجه الخصوص كانت جيدة إلى تلك الفترة.

بدأت إحدى القبائل بالحرب، عندها تم إرسال سرية بقيادة خالد بن الوليد -وأنا أذكر اسمه لأنني من خلال ذلك سوف أوضح لكم شيئاً في ما بعد- وانتهى الأمر دون معركة. كان قبول هؤلاء بالصلح جيداً، ولكن عدم انتصار البيزنطيين على العرب كان بمثابة إنذار لهم.

في الواقع بعد وفاة النبي (ص) كانت المواجهة الأولى للبيزنطيين مع العرب لا مع الإيرانيين. وقد انتصر العرب على البيزنطيين عندما سمحت الأقليات التي كان الدين المسيحي مفروضاً عليها بتقدم العرب، على كل حال انتصر العرب، فهل تجدون أحداً على مر التاريخ عندما يحصل على السلطة يقبل بفقدانها؟ هكذا انتشر الإسلام لاحقاً، ولم يكن لرواج الإسلام أي علاقة بالتبشير؛ لأن الناس كانت تقبل الإسلام بمقدار استفادتها منه، وأولئك الذين لم يقبلوه ظلوا على حالهم. لهذا السبب بقيت الكنائس في تلك المناطق إلى يومنا هذا.

كان قبول المسيحيين واليهود للإسلام وعدم قبولهم له متوقفاً على عقلية خليفة ذلك الزمن على عكس الذي حصل مع المسيحية التي لم تواجه بالتعليم بل بالسلطة والسياسة.

ونحن ماذا نتوقع:

عملياً كان المسلمون قد نحُّوا المسيحيين في ذلك الزمان عن السلطة؛ لأنَّه لو لم يأت الإسلام لكانت المسيحية قد بسطت سيطرتها خلال خمسين عاماً أخرى على أكثر من نصف الكرة الأرضية، ولكن ذهب كل ذلك سدىً. وإلاَّ لَوَصَلَ النساطرة إلى الهند، فقد كان لديهم أساقفة ومبشرين كبار. في إيران وحدها كان لديهم عدد كبير من الأسقفيات.

الحروب الصليبية، التي كانت ردة فعل على هذه الانتصارات، دلت مجدداً على أنَّ الدين لدى المسيحيين لم يكن مهماً بالضرورة. نحن نعلم أنَّ الحروب الصليبية بدأت في ظل الخلافات بين الكنيسة وحكومة ذلك الزمان، ولكن ليس هذا فقط ما حصل.

لو دققنا في تاريخ الحروب الصليبية لذلك الزمان وألقينا نظرةً على الجنوب لرأينا كم مرة تحالف المسلمون والمسيحيون على مجموعاتٍ أخرى من المسلمين أو بالعكس، أي على مجموعات أخرى من المسيحيين. من هنا لم يكن جيشهم مؤلفاً من محاربيهم فقط بل كان بينهم آخرين ايضاً، وهكذا المسلمون لم يكونوا نسيجاً واحداً بل كان بينهم ترك وعرب وأكراد.

هؤلاء كانوا يرون أنَّهم كلما تحالفوا كانوا يصلون إلى السلطة أسرع. هكذا كانوا في

ذلك الحين وهكذا هم اليوم، كانوا فقط يسوقون الناس بهذا الاتجاه.

كانوا يقولون للناس: أولئك ملحدون تجب محاربتهم، وهكذا مباشرةً يصبح الملحد عدواً. أليس هكذا!. واليوم هناك أيضاً شواهد على ذلك.

مع أفول نجم الإسلام عن أسبانيا بدأت مرحلة جديدة من هذا الصراع، وعندما اكتشف كريستوف كولومبوس العالم الجديد ثم فتحه بعد ذلك آخرون ثم ظهر البرتغاليون على الساحة وجاء بعدهم آخرون وجاء العرب فبدأ التاريخ الحديث الذي إن لم نقل إنه تاريخ (مدنس) غير مقدس فهو حتماً ليس تاريخاً مقدساً. هنا أيضاً الصراع لم يكن بين ديانتين بل ما يحصل هو شيء آخر تحت ستار الدين.

الهوامش

(١) سورة النساء: الآية ١٥٧.

(٢) نومينوس(nominos) هو التعبير اللاتيني للشي المقدس الذي تصدر عنه الظواهر.